العرب
السبت 2020/01/04
السنة 42 العدد 11576

قاسم سليماني وأبومهدي المهندس.. غياب الضرورة

رشيد الخيون
كاتب عراقي

كان مقتل ستمئة شاب عراقي من المحتجين في التظاهرات العراقية في العام 2019، واستمرار التظاهرات بهذه الصورة المدهشة، وراء مقتل قاسم سليماني وأبومهدي المهندس، ستقولون كيف؟ أقول إن تلك التظاهرات كانت أحد أسباب تحرك قاسم سليماني بكتائب حزب الله العراق لضرب القاعدة الأميركية، ثم الهجوم الأميركي ومقتل قياديين من الكتائب، ثم ما حصل ضد السفارة الأميركية بعد اجتياح المنطقة الخضراء، وبأمر بطبيعة الحال من قاسم سليماني مباشرة، وبالفعل تمت التغطية تماما على التظاهرات خلال اليومين الفائتين.

لقد أدى قاسم سليماني دور أبي مصعب الزرقاوي داخل العراق، لكن بصورة أخرى، وهو أن الزرقاوي كان بعيدا عن الحكومة العراقية، حيث يخالفها في المذهب، وراح يستعرض علانية الرؤوس التي كان يقطعها، وبالضحايا الذين كان يبطش بهم، فشكّل أساسا لدولة داعش بالموصل، كذلك راح قاسم سليماني يتبختر داخل العراق من غربه إلى وسطه وجنوبه، ليثير اسمه ووجوده رعباً كبيرا. غير أن أول مَن كسر الخوف هم متظاهرو كربلاء عندما حرقوا صور آية الله الخميني وعلي خامنئي وسليماني، وضربوها بالأحذية، لا تتصوروا أن هذا الفعل بسيط على إيران، التي تعشش في العراق عن طريق الرعب، فالأمر كان بداية هزّ ذلك الشعور، وكان ثمن ذلك قتل المتظاهرين.

كان قاسم سليماني يفرض أسماء الوزراء ورئيسهم بالعراق، لا يُعين ويُوافق على وزير إذا لم يمرّ على سليماني.

كان بالفعل قاسم سليماني المندوب السامي على الطريقة البريطانية في الاحتلال، والوالي على العراق حسب الطريقة العثمانية والصفوية. كان سليماني في النظام الإيراني من الشخصيات المقدسة، لأنه اليد اليمنى لنائب الإمام علي خامنئي.

كان التصور العام أن إيران قوية داخل العراق بوجود سليماني، ونائبه أبومهدي المهندس، الشخصية الإرهابية التي أصبحت تأمر وتنهى، أما بعد مقتلهما فقد اهتزت تلك الصورة، وبانت إيران، ذات المخالب المتوزعة على أكثر من بلد، هزيلة، بعد أن دفعت الثمن غاليا مقابل الأحجار التي رمتها على السفارة الأميركية.

انتهت الآن تلك الأسطورة، فإيران تحتاج إلى العشرات من السنين كي تصنع شخصية مثل سليماني، والذي صاحب الثورة الإسلامية منذ قيامها، وكان أحد العسكريين الذين يراهنون على احتلال العراق، خلال الحرب العراقية الإيرانية، ويمثل مع خامنئي الفريق المعاكس لهاشمي رفسنجاني، لتتواصل الحرب حتى 1993، ليتم دخول كربلاء.

كان وراء اغتيالات لا تعدّ ولا تحصى، حتى سمّاه بعض المحللين السياسيين بأنه وزير المستعمرات الإيرانية، مستعمرات تمتد من خلال ميليشيات في كلّ من أفغانستان واليمن ولبنان والعراق وسوريا. بدأ اسم قاسم سليماني غامضا، ليست له صورة، شأنه شأن أيّ شخصية تكثف حولها الهيبة والرعب، وعندما تتحدث وكالات الأنباء عن وجود هذه الشخصية داخل العراق أو سوريا تنفي إيران والحكومات التي سارت في ركابها هذا الوجود، حتى اضطرت الحكومة العراقية إلى الكشف عن وظيفة له وهو مستشارها في شؤون الإرهاب، فتصوروا أن زعيم الإرهاب يصبح مستشاراً في الإرهاب.

تصوروا أن مسؤولين عراقيين لم يستلموا مسؤوليتهم قبل أن تُقدم كتلهم الطاعة في حضرة سليماني، وعندما يسأل رئيس برلمان عراقي سابق، وهو أسامة النجيفي، عن سبب زيارته المفاجئة لإيران، قال: إنه ذهب للتعازي بوفاة والدة سليماني! على أنه صديقه.

وعندما انقلب الوسط الشيعي الشعبي على إيران، راح قاسم سليماني يرتب الوضع الإيراني داخل الوسط السني العراقي، حتى ظهر رجال دين يتحدثون عن الحاج سليماني بالمنقذ، وأن رئيس البرلمان سليم الجبوري، لما حاصره وزير الدفاع خالد العبيدي بقضية فساد طار إلى طهران وأرجعه سليماني وبقرار من المحكمة العراقية إلى منصة البرلمان بريئا. دخل أيضا إلى الوسط المسيحي ليجد من يقدسه، وأخيراً أخذ الحشديون (من الحشد الشعبي) يكتبون على حائط السفارة الأميركية: "قاسم سليماني قائدي".

كان قاسم سليماني وراء تنمّر نوري المالكي وفالح الفياض، ووراء الجملة التي أطلقها المالكي: "ما ننطيها"، أي لا نترك السلطة إلى أبد الآبدين. كان سليماني صاحب الدار، وليس الضيف في العراق، خلال دورات الانتخابات، ولم يبرح المكان أي المنطقة الخضراء حتى يطمئن على النتيجة، ومن المعلوم أن لديه منزلا ومكتبا داخل المنطقة الخضراء، منه يصدر الأمر والنّهي.

كان الخلاص من هذه الشخصية، الشبيهة بشخصية ودور الزرقاوي مع عكس الصورة مثلما قلنا، ضرورة ملحة للعراقيين، ونتيجة حتمية للغرور الذي مارسه سليماني، فوجود الميليشيات بهذا العدد وهذا الانفلات المرعب لم يكن ليتم دون وجوده، حتى صارت بغداد تحتفل بذكرى إرهابيين مثل عماد مغنية، وأنّ لا مسؤول عراقياً يرد على أيّ إهانة يصرح بها قائد إيراني ضد العراق، فلم يُرد على روحاني عندما قال: نفوذنا في العراق، ولم يجرأ أيّ مسؤول عراقي ويسأله: ما هو نفوذك ونحن دولة! ولم يُرد على من قال: بغداد عاصمة إمبراطوريتنا، وكل هذا بسبب الرعب من قاسم سليماني.

لقد حلت الضرورة في نهاية هذا الرجل المريب، الذي احتل العراق بعشرات الميليشيات، وآخر تصرفاته وضع الخطط للقضاء على التظاهرات في الوسط والجنوب، تلك التي كسرت ظهر إيران، لأنها تفاجأت قبل غيرها بتمرد شيعي ضدها.

لقد انتهى فصل حرج من تاريخ العراق، وتوفر مجال للقوى الخيرة لتتنفس الصعداء، ويغلب على الظن أن الميليشيات صارت هي المرعوبة، فلا نظن أن هادي العامري وفالح الفياض وقيس الخزعلي لم يأخذهم الخوف من مصير قائدهم سليماني وزميلهم المهندس، فللغرور جولة، إنه غياب الضرورة.

إيران ستدفن غرورها في قبر سليماني

فاروق يوسف
كاتب عراقي

بين حين وآخر كانت إيران تلجأ إلى ارتكاب خطأ مقصود من أجل استفزاز الولايات المتحدة. وإذا ما كانت تلك الأخطاء قد وصلت قمتها حين تم قصف المنشآت النفطية السعودية فإن رد الفعل الأميركي ظل يدور في نطاق البحث عن مخرج قانوني للأزمة.

في المقابل فإن إيران ارتكبت أخطاء غير مقصودة حين فسرت الصمت الأميركي على أساس كونه دعوة للتهدئة وتخطي ما جرى وهو ما دفعها إلى أن تقترح مشاريع وهمية مشتركة للحفاظ على الأمن والاستقرار في الخليج والحيلولة دون انهيار حالة السلم القلق.

سواء كانت أخطاؤها مقصودة أو لم تكن كذلك فإن إيران كانت تمارس ابتزازا علنيا للولايات المتحدة من خلال وضعها أمام خيارين. إما أن تقبل بالسياسات الإيرانية وترجع عن العقوبات التي فرضتها على إيران صاغرة أو أن تقوم إيران بالإضرار بمصالحها في المنطقة وهو ما واجهته الإدارة الأميركية بقدر من التعقل متحاشية إشعال حرب جديدة في المنطقة.

كعادتها لم تفهم إيران رسائل الآخرين إليها في الوقت الذي كانت فيه تعتقد بوجوب أن يفهم الآخرون رسائلها. لغة مزدوجة تتسم بالتعالي والغرور والطيش هي ما أورثته إيران لميليشياتها التي صارت تتعامل بمنطق أن كل شيء قد حُسم لصالحها فصارت ترى في الحضور العسكري الأميركي في العراق نوعا من التجاوز على مناطق نفوذها.

ذلك المنطق هو ما دفع ميليشيات إيران في العراق إلى أن توجه في أوقات سابقة ضربات غير مؤثرة إلى القواعد الأميركية وإلى محيط سفارة الولايات المتحدة. وبالرغم من أن الإدارة الأميركية كانت واضحة في تحذيرها من أن أيّ خسائر بشرية من جراء ذلك القصف ستكون نتائجه وبالا على مَن يتسبب بها، فإن كتائب حزب الله العراقي أصرّت على أن ترتكب الخطأ القاتل الذي أدى في ما بعد إلى أن تقوم الولايات المتحدة بتوجيه ضربات ماحقة إلى معسكرات تلك الكتائب التي هي جزء من الحشد الشعبي الذي يقوده أبومهدي المهندس، أقرب زعماء الحشد إلى قلب ورؤية قاسم سليماني لمستقبل النفوذ الإيراني في المنطقة.

كان من الممكن تفهّم الموقف الأميركي من جهة كونه رد فعل متوقع، لولا أن "المهندس" نفسه أراد أن يصنع له منجزا تاريخيا على مستوى مقاومة الشيطان الأكبر فأمر بمحاصرة السفارة الأميركية ومحاولة اقتحامها من قبل حشد من الغوغاء أعلنوا عن هويتهم الإيرانية من خلال الصور التي حملوها والشعارات التي رسموها على الجدران الخارجية للسفارة.

كان واضحا أن إيران راغبة في الوصول بالتحدي إلى قمته ما دام الأمر يتم بطريقة غير مباشرة. وكان ذلك خطأً في التقديرات نتج عنه أن قامت الولايات المتحدة بتوجيه ضربة نوعية حين اغتالت سليماني والمهندس باعتبارهما المحرضين الأساسيين على العدوان على سفارتها، وهي أرض أميركية. تلك ضربة سوف تضع حدا للسلوك الإيراني المتعجرف وقد تدفع الإيرانيين إلى مراجعة سياستهم القائمة على التحدي.

وهو ما يعني أن التصعيد الأميركي لن يقابله كما أتوقع تصعيد إيراني.

لن تحبذ إيران أن يكون مقتل سليماني والمهندس بداية لانهيار مشروعها في العراق. لذلك فإنها ستلوذ بالصمت وتكتفي بإعلان الحداد. فأخطاؤها، المقصودة وغير المقصودة، لن تعتبر بعد التحول النوعي الأميركي في الرد نوعا من الاستفزاز الذي يُمكن التغاضي عنه. ما كان ممكنا بالأمس لم يعد كذلك بعد أن كشفت الولايات المتحدة عن نفاد صبرها وتخليها عن سياستها التقليدية القائمة على الاكتفاء بالعقوبات.

ما وقع سيشكل منعطفا مفصليا في الصراع الأميركي – الإيراني، لا في العراق وحده بل في كل المنطقة. وهو ما دفع إسرائيل إلى أن تنتظر أن تغير إيران سياستها في سوريا بعد مقتل سليماني. لذلك فإن انتظار الرد الإيراني إنما يعبّر عن سوء فهم سعت إيران من خلال تكريسه دعائيا إلى الإيحاء بقوتها وقدرتها على مواجهة القوى العظمى.

من غير مبالغة في التكهن يمكنني القول إن إيران ستدفن غرورها مؤقتا في قبر سليماني.

إيران لن ترد مباشرة على مقتل سليماني

د. باهرة الشيخلي
كاتبة عراقية

لم ينتظر متظاهرو ساحات التحرير في العراق طويلاً لإعلان بهجتهم بمقتل قائد فيلق القدس الإيراني ونائب رئيس الحشد الشعبي في العراق ومن معهما في عملية "البرق الأزرق"، فبعد دقائق من وصول خبر استهداف القوات الأميركية لموكبهما بصواريخ أطلقتها طائرات مسيرة، انطلقوا في مسيرات أعلنوا فيها فرحتهم بالحادث.

إن المنتفضين العراقيين يرون في ما حدث صراعا على النفوذ بين قوتين أجنبيتين لا علاقة لهم بهما، وأن الفرح بمقتل سليماني والمهندس لا يعني تأييد السياسات الأميركية من قريب أو بعيد، كما عبّر عن ذلك عدد من المنتفضين، ولكن لا ينكر، أيضاً، أن مصرع هاتين الشخصيتين، اللتين يعتبرهما المنتفضون أبرز قادة "الطرف الثالث" الذي استهدفهم بالقتل والاغتيالات، قد أعطى انتفاضة العراقيين زخما كبيرا وجعل المتظاهرين أكثر إصرارا على مطالبهم.

وصف كاتب عراقي كبير، أبا مهدي المهندس، قبل مقتله بمدة قليلة بأنه "أخطر جاسوس إيراني في العراق"، وقال إنه "برتبة جنرال في فيلق القدس، ومهمته الأساس، في المرحلة الراهنة، ذات سياقات عسكرية عديدة، من بينها، تحجيم الجيش العراقي ومنع تطوره، تمهيداً لتحويله إلى قوات أمنية داخلية، وإنهاء 'بدعة' الجيش حامٍ للسيادة الوطنية، والدفاع عن حدودٍ البلاد، فهذه شعارات قومية في نظره"، والمهندس يرى أن العراق ليس وطناً مستقلاً، ولا جزءا من الأمة العربية، وإنما هو امتداد استراتيجي لإيران، والزاوية الشرقية، في خارطة هلالها الشيعي، ويسعى أيضا إلى تشتيت جهاز مكافحة الإرهاب، وحجته في ذلك أنه أميركي التأسيس والتسليح، ويعمل، منذ خمس سنوات، على تأهيل عدد من فصائل الحشد الشعبي، ومنها ميليشيا حزب الله التي يقودها مباشرة، ومعسكرها الرئيس في مدينة جرف الصخر المنكوبة، وتحويلها إلى حرس ثوري "عراقي" يكون ركيزة السلطة، وحاضنة الحكم، كما هو حال الحرس الثوري الإيراني.

وسياسياً فإن مهمة المهندس تلخصت بإخضاع المناطق والمحافظات السنية العربية بالكامل لسيطرة الميليشيات الشيعية، والسعي إلى تغيير هوية السكان فيها، والاستمرار بتهميشهم وتحجيمهم، ومنع نازحيهم ومهجّريهم من العودة إلى بيوتهم وديارهم، وإجبار السلطات الحكومية، على مواصلة إهمال تلك المحافظات وعدم إعمارها، وتقليص ميزانياتها، وهذا ما يحدث، حالياً ومنذ خمس سنوات، في محافظات ديالى وصلاح الدين والأنبار وكركوك والموصل وشمال بابل.

أما قاسم سليماني فهو شخصية مفصلية في نظام الولي الفقيه، فهو ينفّذ سياساته لإخضاع بعض دول المنطقة لإيران، واضطلع سليماني بأدوار لم تقتصر على ساحات المعارك العسكرية، بل بأدوار دبلوماسية لم تواجه رفضاً من حكومة حسن روحاني، إذ عيّن دبلوماسيين من أعضاء فيلق "القدس" في مناصب دبلوماسية، منهم السفير الحالي لدى العراق إيرج مسجد جامعي، الذي كان لسنوات كبير مستشاري سليماني.

وعندما سئل وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف عن طبيعة العلاقة بينه وبين سليماني أجاب "أكنّ له الاحترام الخاص، تربطنا علاقات وطيدة منذ 20 عاما ونعمل معا عن كثب لتحقيق أهداف الجمهورية الإسلامية".

ما حدث في الساعات الأولى من يوم الجمعة كان خطوة مفتاحية سوف تعقبها سلسلة إجراءات عسكرية وسياسية لإحكام القبضة الأميركية على العراق بواجهات عراقية سياسية وعسكرية، كما ستعقبها متغيرات في سوريا ولبنان واليمن

سليماني يعدّه أنصاره، ومن بينهم مسؤولون إصلاحيون ومحافظون بطلا قوميا يدير عمليات الحفاظ على سيادة البلاد في الخارج، لكنّ معارضيه يرون فيه عاملاً أساسياً في انعدام الأمن في المنطقة ولاسيما في العراق وسوريا واليمن من خلال دعم ميليشيات متعددة.

هناك من تخوّف من أن استهداف سليماني والمهندس ينذر بحرب أهلية في العراق وحراك قوي في إيران لاستهداف المصالح الأميركية، من دون أن يفطنوا إلى المتغير الذي أحدثته الانتفاضة العراقية، التي وحّدت موقف العراقيين جميعاً من النفوذ الإيراني في العراق وأفرزت خندقين لا ثالث لهما في بلاد الرافدين هما خندقا الشعب الموحد، والميليشيات الموالية لإيران، والخندق الأخير فضح ضآلته وحجمه الصغير هجوم هذه الميليشيات على السفارة الأميركية في اليوم الأخير من السنة الماضية.

بعد مصرع سليماني والمهندس ظهرت القنوات الفضائية للأحزاب الموالية لإيران وميليشياتها وعلى واجهتها كلمة واحدة "سننتقم"، كما أن تلفزيون العهد المحلي القريب من جماعة عصائب أهل الحق نقل عن قيس الخزعلي قائد الجماعة المسلحة قوله "على كل المجاهدين المقاومين الجهوزية، فإن القادم علينا فتح قريب ونصر كبير، ومقابل دماء الشهيد القائد أبومهدي المهندس زوال كل الوجود العسكري الأميركي في العراق. ومقابل دماء الشهيد القائد قاسم سليماني زوال كلّ إسرائيل من الوجود"، وهذا الكلام ليس معقولاً ولا واقعياً، فقد هرب عناصر الميليشيات من إطلاق طائرة أباتشي أميركية مشعلاً نارياً عليهم عند هجومهم على السفارة الأميركية في المنطقة الخضراء، ما جعل مرجعية السيستاني في النجف تنصحهم، في خطبة الجمعة، بضبط النفس والتصرف بحكمة. إن ما حدث في الساعات الأولى من يوم الجمعة كان خطوة مفتاحية سوف تعقبها سلسلة إجراءات عسكرية وسياسية لإحكام القبضة الأميركية على العراق بواجهات عراقية سياسية وعسكرية، كما أن انعكاسات الحدث سوف تعقبها متغيرات في سوريا ولبنان واليمن، ولن تستطيع إيران إبداء أيّ رد فعل مباشر على ما حدث.